

الترتيل في تلاوة القرآن

قال الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بِأَيِّهَا الْمُرْتَلُّ﴾ (١) ﴿قِرَّأَتِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلاً﴾ (٢) ﴿يُصَفِّهُ، أَوْ انْقَضَ مِنْهُ قَلِيلاً﴾ (٣) ﴿أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (٤) ﴿إِنَّا سَأَلْنَاكَ قَوْلًا نَفِيلاً﴾ (٥) ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ (٦) ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ (٧) ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ (٨) ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (٩) ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (١٠).

(سورة المزمل)

التحليل اللفظي

المزمل: قال اللغويون: (المزمل) الملتف في ثيابه، وأصله (المتزمل) فادغمت التاء في الزاي فتقلت، وكل من التفت بشو به فقد تزمل. قال امرؤ القيس:

كأن أبانا في أفانين ودقه كبير أناس في بجاد مزمل^(١)

وقال ذو الرمة: ومن نائم عن ليها متزمل^(٢).

ورتل القرآن: قال الزجاج: رتل القرآن ترتيلاً: بينه تبييناً، والتبيين لا يتم إلا بإظهار جميع الحروف، وتوفيتها حقها من الإشباع.

وقال المبرد: أصله من قولهم: ثغر رتل إذا كان بين الشايبا افتراق ليس

(١) البحر المحيط ٣٥٨/٨، والفرطبي ٣٠/٢٠، واللسان - مادة (زمل).

(٢) صدر البيت: وكانن تخطت ناقتي من مفازة... وانظر البحر المحيط ٣٥٨/٨.

بالكثير، وقال الليث: الترتيل تنسيق الشيء، وثغررتل: حسن التنضيد^(١).
ومعنى الآية: اقرأ القرآن على تؤدة، وتمهل، وتبين حروف، مع تدبر
المعاني.

ناشئة الليل: أوقات الليل وساعاته، سميت بذلك لأنها تنشأ شيئاً بعد شيء، يقال:
نشأ السحاب إذا ابتداء، فناشئة (فاعلة) من نشأت تنشأ فهي ناشئة، والمراد
ساعات الليل الناشئة، فاكتفى بالوصف عن الاسم^(٢).

وقال الزمخشري: ناشئة الليل: النفس الناشئة بالليل، التي تنشأ من
مضجعتها إلى العبادة أي تنهض، وأنشد ابن السكيت:

فلَمَّا أَنْ تَنَشَّأَ قَامَ خِرْقٌ مِنْ الْفَتِيَانِ مَخْتَلِقٌ هُضُومٌ^(٣)

أشد وطأ: أي أثقل على المصلي من ساعات النهار، من قول العرب: اشتدت
علينا وطأة السلطان، إذا ثقل عليهم ما حملهم من المؤن، وفي الحديث:
«اللهم اشدّد وطأتك على مُضِرِّه»^(٤)، فالليل وقت النوم والراحة، فمن شغله
بالعبادة فقد تحمل المشقة العظيمة.

والمعنى: إن قيام الليل للعبادة، وقضاء ساعاته في الطاعة، أشدّ ثقلاً
على النفس، وأرجى عند الله وأقوم.

وأقوم قِيلاً: أي أشدّ استقامة واستمراراً، وأكثر استقامة على نهج الحق والصواب،
لأن الليل تهدأ فيه الأصوات، وتنقطع فيه الحركات فتخلص فيه القراءة،
ويفرغ القلب لفهم التلاوة، فلا يكون دون تسمعه وتفهمه حائل.

سبحاً: قال المبرد: سبحاً أي ثقباً وتصرفاً في المهمات كما يتردّد السابح في
الماء. قال الشاعر:

(١) الفخر الرازي ٣٣٤/٨، والقرطبي ٣٦/٢٠.

(٢) القرطبي ٣٨/٢٠، والبحر المحيط ٣٦٢/٨.

(٣) الكشاف، الجزء الرابع، وانظر لسان العرب - مادة (نشأ).

(٤) الحديث من رواية البخاري ومسلم في قصة (القنوت في الفجر).

أباحوا لكم شرق البلاد وغربها ففيها لكم يا صاح سحح من السحح^(١)
قال في اللسان: السحح: الفراغ وفي التنزيل: ﴿سبحاً طويلاً﴾، إنما
يعني به فراغاً طويلاً وتصرفاً، وقيل: معناه: لك في النهار ما تقضي
حوادثك.

وقال الزجاج: إن فاتك من الليل شيء من النوم والراحة، فلك في
النهار فراغ فاصرفه إليه^(٢).

وقال ابن عباس: لك في النهار فراغ لنومك وراحتك، فاجعل ناشئة
الليل لعبادتك^(٣).

وتبتل: التبتل الانقطاع إلى العبادة، ومنه قيل لمريم عليها السلام (التبتول) لأنها
انقطعت إلى الله تعالى في العبادة، وأصل التبتل: القطع، ويقال للراهب
(متبتل) لانقطاعه عن الناس، وانفراده بالعبادة. قال امرؤ القيس:

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة مُمسى راهب متبتل^(٤)

هجراً جميلاً: أي لا تعرض لهم، وجانبهم ولا تقابلهم بمثل إساءتهم.

المعنى الإجمالي

يقول الله تعالى ما معناه مخاطباً نبيه الكريم: يا أيها المتزمل المتلطف في
ثيابه، قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، قم للجهد والنصب، والكد والتعب، فقد
مضى وقت الراحة، قم فشمّر عن ساعد الجد، وأحيي الليل كله أو نصفه أو أقل
قليلاً، بالصلاة والتضرع، والعبادة والتخضع، لتستعد لنفحاتنا القدسية، لأننا

(١) البحر المحيط ٣٦٣/٨، والألوسي ١٠٥/٢٩.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٣٣٧/٨، وانظر اللسان - مادة (سحح).

(٣) زاد المسير لابن الجوزي ٣٩٢/٨.

(٤) معنى البيت: إذا ابتسمت بالليل رأيت لها بريقاً وضوءاً، وإذا برزت في الظلام استنار
وجهها حتى يغلب ظلمة الليل.

سوحى إليك بهذا القرآن العظيم، الثقيل في القدر، العظيم في الأجر، الرصين في الجزالة والتعبير، فاقراً بتدبر وتبصر في قيامك بالليل، ورتله على مهل بخشوع وإنابة فإن قيام الليل بالصلاة، وقضاء ساعاته في الطاعة، أشد ثقلًا على النفس، وأرجى للقبول عند الله.

ولك يا محمد في النهار ثقلًا طويلًا في مهامك، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك، واذكر اسم ربك لتستمد قوتك منه، وانقطع لعبادته ولا تتوجه لأحد سواه. فهو الناصر والمعين، وهو رب العزة، ذو الجلال والإكرام، الذي لا يخيب من التجأ إليه، فاجعله وكيلًا لك في جميع الأمور.

واصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، وعن صدودهم وإعراضهم عن دعوتك، ولا تتعرض لهم ولا تقابلهم بمثل إساءتهم، واهجرهم بالحسنى حتى يجعل الله لك من أمرك فرجاً ومخرجاً، بالنصر عليهم ونصر الله قريب.

وجوه القراءات

أولاً: قرأ الجمهور (يا أيها المزمّل) بتشديد الزاي والميم، وقرأ أبي بن كعب وأبو العالية (المتزمل) بإظهار التاء على الأصل^(١).

ثانياً: قرأ الجمهور (هي أشدّ وطأً) وقرأ ابن عامر وأبو عمرو (وطأة) بكسر الواو مع المدّ، وقرأ ابن محيصن (أشدّ وطأة) بفتح الواو، والطاء، وبالمد^(٢).

وجوه الإعراب

أولاً: قوله تعالى: ﴿يا أيها المزمّل. قم الليل إلا قليلاً﴾.

(المزمّل) صفة له (أي) قال ابن مالك:

وأيها مصحوب (أل) بعد صفة.

و (نصفه) بدل من الليل، بدل بعض من كلّ.

(١) القرطبي ٣٠/١٩، والألوسي ١٠٠/٢٩.

(٢) البحر المحيط ٣٦٠/٨، وزاد المسير ٣٨٨/٨.

قال الزمخشري: (نصفه) بدل من الليل، و(إلا قليلاً) استثناء من النصف،
كأنه قال: قم أقل من نصف الليل، والضمير في (منه) يعود للنصف^(١).

ثانياً: قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾، لفظ (أشدّ) خبر المبتدأ، و(وطأ) تمييز^(٢).
وجملة (هي أشدّ وطأً) خبر (إن).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وتَبَلَّ إِلَيْهِ تَبِيلاً﴾، تَبَلَّ: أمر و(تبيلاً) مفعول مطلق
وهو غير جارٍ على فعله، والأصل فيه أن يُقال (تَبَلَّ) ولأن وزن (تفعيل) إنما تجيء
في مصدر (فَعَّل) كقولهم: رَتَّلَ ترتيلاً، وأما وزن (تفعل) فيأتي المصدر (تفعلاً)،
إلا أنهم قد يُجرون المصدر على غير فعله كقول الشاعر:

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تَبَّغَه اتِّباعاً^(٣)
فأجرى اتباعاً مصدرأ على (تَبَّع) والقياس (تَبَّعاً) والشواهد على هذه كثيرة.

لغات التفسير

اللطفية الأولى: الحكمة في ندائه ﷺ بوصف التزل هو إرادة (الملاطفة
والإيناس) على نحو ما كان عليه العرب في مخاطباتهم من اشتقاق اسم للمخاطب
من صفته التي هو عليها كقول النبي ﷺ لعلي كرم الله وجهه، لَمَّا غاضب فاطمة
وذهب إلى المسجد فنام فيه - وكان قد لصق بجنبه التراب -: قم أبا تراب، قم
أبا تراب، للمؤانسة والملاطفة.

اللطفية الثانية: سبب التزل ما روي في الصحيح عن رسول الله ﷺ

أنه قال:

(جاورت بحراء فلما قضيت جواربي هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني
فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت

(١) الكشاف، الجزء الرابع، والبحر المحيط ٣٦٠/٨.

(٢) البيان في غريب إعراب القرآن ٤٦٩/٢.

(٣) البيت للقطامي، واستشهد به ابن جني في كتابه الخصائص ٣٠٩/٢.

رأسي فإذا الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجُيِّثُ
 (فزعت) منه رعباً فرجعت فقلت: زَمَلُونِي زَمَلُونِي ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدُنِيُّ
 قُمْ فَاذْهَبْ. . . إِلَى قَوْلِهِ : وَالرُّجُزَ فَاهْجُرْ﴾ (١) .
 فسبُّ التزمّل هو ما عراه ﷺ من الرعب والفرع من رؤية الملك على صورته
 الملكيّة .

اللطيفة الثالثة : ذكر الله تعالى في كتابه العزيز ثلاثة أشياء وصفها بـ (الجميل) وأمر بها نيّبه
 عليه الصلاة والسلام وهي : قوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ . . . ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا
 جَمِيلًا﴾ . . . ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ .
 فالصبرُ الجميل الصبرُ الذي لا شكوى معه .
 والهجرُ الجميل الهجرُ الذي لا أذية معه .
 والصفحُ الجميل الصّفْحُ الذي لا عتاب معه .
 اللطيفة الرابعة : (في الصحيح أنه ﷺ كان يقوم الليل حتى تفتطرت قدماءه ،
 فقالت له السيّدّة عائشة ، أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك
 وما تأخر؟ ! فقال لها عليه السلام : أفلا أكون عبداً شكوراً!!) . فصلوات ربي
 وسلامه على نبيّه المصطفى وحيّيه المجتبي .

الأحكام الشرعيّة

الحكم الأول : هل قيام الليل كان فريضة على الرسول ﷺ ؟

ظاهر قوله تعالى : ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أن التهجد كان فريضة عليه ﷺ وأن
 فرضيّته كانت خاصة به ، وممّا يدل عليه قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ
 فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ ، فإنّ قوله : ﴿نَافِلَةٌ لَكَ﴾ بعد الأمر بالتهجد ظاهر في أن
 الوجوب من خصائصه عليه الصلاة والسلام ، وليس معنى النافلة في هذه الآية
 ما يجوز فعله وتركه ، فإنه على هذا الوجه لا يكون خاصاً به عليه الصلاة والسلام ،
 بل معنى كون التهجد نافلة له أنه شيء زائد على ما هو مفروض على سائر الأمة .

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الوحي ٢٧/١ واحد في المسند .

وقد كان المؤمنون يصلون مع الرسول ﷺ حتى ورمت أقدامهم وسوقهم من القيام، فنسخ الله تعالى ذلك بقوله في آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ . . .﴾، إلى قوله: ﴿عَلِمَ أَنَّ لِنَاصِحِئِهِمْ فَتَابَ عَلَيْهِمْ فَافْرُؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ . . .﴾ الآية.

قال ابن عباس: وكان بين أول هذا الإيجاب وبين نسخه سنة^(١). وقال جماعة من المفسرين: ليس في القرآن سورة نسخ آخرها أولها سوى هذه السورة^(٢).

الحكم الثاني: هل تجوز قراءة القرآن بالتلحين؟

أمر الله جل ثناؤه بترتيل القرآن: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾، أي اقرأه على تودة وتمهل وتبين حروف، بحيث يتمكن السامع من استيعابه وتدبر معانيه.

ولا خلاف بين العلماء أن قراءة القرآن بالترتيل بمعنى التجويد، وهوتبين الحروف وتحسين المخارج وإظهار المقاطع، حسن مطلوب، إنما الكلام في التغني به وتلحينه هل هو جائز أم ممنوع؟.

وقد اختلفت فيه آراء الأئمة الفقهاء، تبعاً لاختلاف الصحابة والتابعين، ونحن نذكر مذاهبهم مع أدلة كل فريق بشيء من التفصيل، فنقول ومن الله نستمد العون:

مذاهب الفقهاء في القراءة بالتلحين:

أولاً: مذهب (المالكية والحنابلة): كراهة القراءة بالتلحين، وهو منقول عن (أنس بن مالك) و(سعيد بن المسيب) و(سعيد بن جبير) و(القاسم بن محمد) و(الحسن البصري) و(إبراهيم النخعي) و(ابن سيرين).

ثانياً: مذهب (الحنفية والشافعية): جواز القراءة بالتلحين، وهو منقول عن (عمر بن الخطاب) و(ابن عباس) و(ابن مسعود) و(عبد الرحمن بن الأسود بن زيد)، وقد ذهب إليه من المفسرين (أبو جعفر الطبري) و(أبو بكر بن العربي).

(١) الفخر الرازي ٣٣٣/٨، وزاد المسير ٣٨٩/٨، والقرطبي ٣٣/٢٠.

(٢) زاد المسير ٣٨٩/٧، والقرطبي ٣٦/٢٠.

أدلة المذهب الأول:

(أ) حديث: «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الكتاب والعشق، فإنه يحيي من بعدي أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم»^(١).
فقد نعى عليه السلام على من يرجع بالقرآن ترجيع الغناء والنوح على نحو ما يفعله أكثر قراء هذا العصر.

(ب) حديث: «يتخذون القرآن مزامير، يقدمون أحدهم ليس بأقرئهم ولا أفضلهم ليغنيهم غناء»^(٢).

(ج) حديث: «إن الأذان سهلٌ سمحٌ، فإن كان أذناك سهلاً سمحاً وإلاً فلا تؤذن»^(٣)، قالوا: فقد كره النبي ﷺ أن يطرب المؤذن في أذانه، فدل ذلك على أنه يكره التطريب في القراءة بطريق الأولى.

(د) وقالوا أيضاً: إن التغني والتطريب يؤدي إلى أن يزداد على القرآن ما ليس منه، وذلك لأنه يقتضي مدّ ما ليس بممدود، وهمز ما ليس بمهموز، وجعل الحرف الواحد حروفاً كثيرة وهو لا يجوز، هذا إلى أن التلحين من شأنه أن يلهي النفوس بنغمات الصوت، ويصرفها عن الاعتبار والتدبر لمعاني القرآن الكريم.

وقد سئل (مالك) عن الألحان في الصلاة، فقال: لا تعجبي، وقال: إنما هو غناء يتغنون به ليأخذوا عليه الدراهم.

وروي عن الإمام (أحمد) أنه كان يقول: قراءة الألحان ما تعجبي، والقراءة بها بدعة لا تسمع.

(١) رواه الترمذي في نوادر الأصول عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً، وذكره السيوطي في الجامع الصغير، وعزاه للطبراني في الأوسط، وفيه راوٍ لين يعتمد، وانظر جامع الأصول ٤٥٩/٢.
(٢) انظر أحكام القرآن للسايس، الجزء الرابع ص ١٩٤.
(٣) الحديث رواه الدارقطني عن عطاء، عن ابن عباس، وفيه: كان لرسول الله ﷺ مؤذن يطرب، فقال له النبي: . . . إلخ.

وسئل : ما تقول في القراءة بالألحان؟ فقال للسائل : ما اسمك؟ قال : محمد،
قال له : أيسرُك أن يقال لك : يا موحامد ممدوداً؟

أدلة المذهب الثاني :

واستدل المجيزون للقراءة بالتلحين وهم (الحنفية والشافعية) بأدلة نوجزها
فيما يلي :

- (أ) حديث : «زينوا القرآن بأصواتكم»^(١).
- (ب) حديث : «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»^(٢).
- (ج) حديث عبد الله بن مغفل قال : (قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسير
له سورة (الفتح) على راحلته فرجع في قراءته)^(٣).
- (د) حديث أن رسول الله ﷺ استمع ليلة قراءة أبي موسى الأشعري، فلما
لقيه قال له : «لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود»، فقال له أبو موسى :
(لو علمت أنك تسمع لحبّرتك لك تحبيراً)^(٤).
- (هـ) حديث : «ما أذن الله لشيء أذنه»^(٥) لنبي حسن الصوت يتغنّى
بالقرآن»^(٦).

(و) وقالوا أيضاً : إنّ الترنم بالقرآن والتطريب بقراءته، من شأنه أن يبعث
على الاستماع والإصغاء، وهو أوقع في النفس، وأنفذ في القلب، وأبلغ في التأثير.

-
- (١) الحديث رواه أبو داود رقم ١٤٦٨، والنسائي ١٨٠/٢، وأحمد في المسند ٢٨٣/٤.
 - (٢) الحديث رواه أبو داود رقم ١٤٧٠، وأخرجه أحمد رقم ١٤٧٦، وابن ماجه رقم ١٣٣٧.
 - (٣) الحديث رواه البخاري عن عبد الله بن مغفل، ورواه أحمد في المسند، وانظر تفسير ابن كثير
١٩٦/٤.
 - (٤) الحديث رواه مسلم رقم ٧٩٣ ولفظه : (لورأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك، لقد أعطيت
مزماراً من مزامير آل داود... إلخ، وأخرجه البخاري في فضائل القرآن ٨١/٩).
 - (٥) أذن بمعنى استمع، والأذن بفتحين الاستماع، قال الشاعر:
صُمُّ إذا سمعوا خيراً ذُكِرَتْ بهِ وإن ذُكِرَتْ بشرٌ عندهم أذُنوا
 - (٦) الحديث رواه البخاري ٦٠/٩ في فضائل القرآن، ومسلم رقم ٧٩٢، وانظر جامع الأصول
٤٥٧/٢.

وقد روى الطبري عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول لأبي موسى الأشعري :
ذُكِّرنا ربنا، فيقرأ أبو موسى ويتلاحن فيقول عمر: من استطاع أن يتغنّى بالقرآن غناء
أبي موسى فليفعل .

وكان ابن مسعود تعجبه قراءة (علقمة الأسود) - وكان حسن الصوت - فكان
يقراً له علقمة، فإذا فرغ قال له: زدني فذاك أبي وأمي .

هذه خلاصة موجزة لأدلة الفريقين، وأنت إذا أمعنت النظر وجدت أن الخلاف
بينهم يكاد يكون (شكلياً) لا (جوهرياً) فالفقهاء جميعاً متفقون على حرمة قراءة
القرآن بالأنغام، التي لا تراعى فيها أحكام التجويد، كمدّ المقصور، وقصر
الممدود، وترقيق المفخّم، وتخميم المرقق، وإظهار ما ينبغي إدغامه، وإخفاء
ما ينبغي إظهاره... إلخ، والتي يكون الغرض منها (التطريب) وإظهار جمال
الصوت فحسب، دون تقيّد بالأحكام وآداب التلاوة، كما يفعله بعض الجهلة من قراء
هذا العصر، فإن هذا لا يشك أحد في تحريمه .

أما إذا كان المراد بـ (التلحين) هو تحسين الصوت بالقراءة وإخراج الحروف
سليمة من مخارجها، دون تفرغ أو تمطيظ، مع تطبيق أحكام التجويد ومراعاة
الوقوف والمدود، فإن هذا لا يقول أحد بتحريمه، لأن الصوت الحسن يزيد في جمال
القرآن، وله أثر في نفس الإنسان، وقد استمع النبي عليه الصلاة والسلام إلى
قراءة بعض أصحابه، فأعجب بحسن صوته حتى قال لأبي موسى الأشعري: «لقد
أعطيت مزماراً من مزامير آل داود»، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

تمّ بعونه تعالى الجزء الثاني من كتاب «روائع البيان»، وآخر دعوانا أن
الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

مكة المكرمة

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

خمرة رجب الفرد ١٣٩١ هجرية